نمره ٩٢ مواعظ الطران جبرائيل حوشب اوقفها للمكتبة سنة ١٧٣٣ وسنتكلم باسهاب عمَّا دوَّنهُ لنا هذا الحبر عن حياتهِ عند كلامنا على كتاب الرموز ومفتاح الكنوز وهو بخط يد المؤلف اودع لنا فيهِ ما يجعل بنا نقلهُ في محلهِ

نمره ٩٣ و٩٤ مواعظ الجمري وهي من سنة ١٧٠٨ وسنة ١٧٢١ راجع الحاشية التي علقناها على الكتاب نمره ٨٢. انتهى الكلام عن كتب المواعظ ويليهِ الكلام عن الكتب اللاهوتيَّة (لهُ تابع)

رحلة

مُحَمَّد سَعِيد بَاشَا إِلى بَارِيس

تَوطِئَة

بينما كان السلطان العازي احمد الثالث جالساً على منصَّة بني عثمان (١١١٦ – ١١١٥ ه = ١٧٠٣–١٧٣٠ م) نشبت بين الدولة العليَّة ودول اوربَّة لاسيما روسيَّة والنمسة وفرسان مالطة عدَّة حروب اضعفت نوعاً تركيَّا فجعل السلطان يطلب لهُ عضداً في مملكة فرنسا وعزم على ان يجدِّد المعاهدات القديمة التي كانت بين الدولتين. وكان اذ ذاك الصدر الاعظم رجلاً ذا عزم واقدام يُدعى ابراهيم باشا فاتفق مع سيِّدهِ على ان يجعل لفرنسة ملك قبر السيِّد المسيح في القدس الشريف وان يسمح للملك لويس الخامس عشر بان يرمِّم المعابد المتداعية فيها. فاسرع السفير الفرنسويّ لدى الباب العالي وهو المركيز دي بوناك (de Bonnac) وسافر الى باريس واخبر الدوق دي اورليان وصيّ ملك فرنسة بالامر فشكر لجلالة السلطان لطفهُ وحرَّر ١٥٠ اسيرًا من المسلمين الى جسم السفير الى الاستانة

فانتهز ابراهيم باشا هذه الفرصة الموافقة لتجديد العهود القديمة بين تركيَّا وفرنسا وطلب مستمدًّا دوليًّا يرسلهُ كسفير الى باريس لهذه الغاية فاختار رجلاً محنَّكاً كان مثَّل دولتهُ في معاهدة پسأروفتس (Passarowitz) سنة ١٧١٨ اسمهُ محمَّد افندي او محمَّد سعيد باشا واشتهر باسم محمَّد بكرمي سكز اي الثامن والعشرين لانهُ كان منوطاً باورطة اليكشاويَّة الثامنة والعشرين. فاعلن الصدر الاعظم بنيَّتهِ في ١٩ آب سنة ١٧١٩ وطلب الى السفير الفرنسويّ بان يحضر للوفد الثاني تركيَّا يتقاهُ من الاستانة الى مدينة طولون. وكان السلطان عهد اليهِ بان يبرم مع الدولتين الفرنسويَّة والاسبانيَّة محالفةً دفاعيَّة وهجوميَّة بينهما وبين تركيَّة ضدَّ

الثمسة فاعلم المركيز دي بوباك وزير ملك فرنسة الكردينال دوبوا (le cardinal Dubois) بنيَّة الدولة العليَّة وقبل ان يأتيهُ الجواب خرج الوفد الثاني من الاستانة مبحرًا الى طولون . وكان مع السفير ابنهُ سعيد الذي اشتهر بعد ذلك بسفارة ثانية الى ملك فرنسة في ٤ ذي الحجَّة ١١٣٢ هـ (٧ تشرين الاوَّل ١٧٢٠) . وكان وصولهم الى طولون في زمن فشوّ الطاعون فيها فاستقبلهم عمَّال الدولة بكل اكرام لكنَّ قوانين الصحَّة اقتضت بان يصرفوا اربعين يومًا في الحجر ومن بعد ذلك ساروا راكبين سفينة فاخرة وقدَّمتهم على تُرعة شهيرة في جنوبي فرنسة تُعرف بترعة اوقنال لنغدوق (le canal du Languedoc) فساروا من سيت (Cette) الى مسلبار (Montpellier) ثمَّ نرنتيان (Frontignan) ثمَّ الى تولوز وبوردو (Bordeaux) ومنها الى جهة التل الشرقي حيث انتهوا الى بلوا (Blois) ثمَّ ساروا برًّا على العرَّبات الى اورليان ثم باريس حيث تراحمت جماهير الشعب لاستقبالهم وتوقَّفت اسباب الماء فدخلوا على جلالة الملك واحتفوا باعيان الدولة وزاروا منتزهات باريس وحدائقها ومناظرها وتجوَّلوا في معاهدها وقصورها كارلي (Marly) وفرسايل (Versailles) وتفقَّدوا مصانعها العجيبة ومرصدها الفلكي . وكان السفير يلقى كلَّ رعاية حيثما حلَّ وقد امر الملك احد مصوّريه المدعو جوزف باروسل (Joseph Parrocel) فصوَّرهُ وحاشيتهُ عند دخولهم الى قصر الملك المعروف بالتويلري (Tuileries) ثم عند خروجهم بعد مواجهة الملك ماريّن على جسر نهر السين وكانا الصورتين محفوظة الى يومنا وكذلك ضرب نوط يمثل السفير بازاء ملك فرنسة وفي اطار النوط مكتوب باللاتينيَّة على الوجه (Splendor nominis Gallici) اي « رونق الاسم الفرنسويّ » وعلى الظهر (Orator Imperatoris Turcarum, MDCCXXI) اي « سفير سلطان الاتراك في سنة ١٧٢١ »

ولمَّا أتمَّ السفير مهمَّتهُ نال من الملك ألطافًا غاية في الحسن والجمال يساوي ثمنها نحو ٦٠,٠٠٠ فرنك من نقودنا وكذلك أتحف الملك سعيد ابنهُ وحاشيتهُ هدايا ثمينة وسعيد المذكور انتهز تلك الفرصة ونقل من مطبعة باريس حروفها العربيَّة الى الاستانة فطُبعت الكتب لاوَّل مرَّة بالحروف العربيَّة (١ ثم رجع الوفد الى طولون مارًّا بمدينة ليون (Lyon) ثمَّ نيم (Nîmes) فكانت تُقام لهُ في كل محلّ مواسم واعياد عظيمة . ولمَّا عاد السفير الى الاستانة اخبر سيّده بما عاينهُ من عجائب فرنسة ثمَّ دوَّن اخبار رحلتهِ في التركية . وعاش محمَّد افندي يكرمي سكز معزَّزًا تحت ظلّ حماية ابرهيم باشا وتقدَّم في الوظائف حتى صار قبطان باشا . وبقي في منصبهِ الى سنة ١٧٣٠ حيث شغب الينكشاريَّة فقتلوا الصدر الاعظم ابرهيم باشا وخلعوا السلطان احمد الثالث فاقاموا بدلًا منهُ السلطان محمود الاوَّل . ثم اضطرُّوا محمَّد باشا يكرمي سكز الى الخروج من الاستانة وارسلوهُ الى قبرس فتولَّاها الى سنة وفاتهِ نحو سنة ١٧٣٥ وكان مولدهُ قريبًا من ادرنه سنة ١٦٤٠

امَّا رحلتهُ فقد طُبعت في فرنسة سنة ١٨٤١ جمعيَّة مكتب الالسنة الشرقيَّة الحيَّة (L'Ecole des Langues Orientales Vivantes) ثمَّ كرَّر طبعها في الاستانة سنة ١٨٧٦

---

١) راجع مقالتنا عن تاريخ الطباعة (في المشرق ٣ : ١٧٧)

سوائي افندي وكانت قبل ذلك نُقلت الى الفرنسوية فطُبعت في موبيليار وهذا عنوانها (John Seekes : *Voyage d'un Ministre Ottoman, annoté avec des documents inédits*) على انَّ هذه المطبوعات كلّها نادرة لم يمكنّا ان نحصل عليها. وكان فقيد رسالتنا المرحوم الاب اطون رباط وجد في حلب ترجمتها العربيَّة في مكتبة طائفة السريان فاستنسخها ناويًا ان ينشرها فحال الموت دون رغبته. وها نحن نتولّى نشرها مع تذييلها بالحواشي والملحوظات التي امكنّا جمعها. وقد تركنا الترجمة على اصلها مع ركاكة تعريبها ولم نلم من كان معرّبها. والمرجّح انها عُرّبت عن التركيَّة بعد نقلها عن الافرنسيس. ويظهر من لهجتها انَّ المعرّب حلبيّ ل. ش

نبتدي بكتابة رحلة سعيد باشا (١ من طرف العثملي الى بلد فرنسا الى عند السلطان بطريق إلْجي (٢ وذلك في سنة ١١٣٢ هجرية ١٧٢٠ مسيحية

وصول السفير الى طولون

سنة الف وماية واثنتين وثلاثين رابع يوم من شهر ذي الحجة نهار الاثنين (٧ ت١ سنة ١٧٢٠) حصلتُ مسافرًا في غليون بكالك(٣ الى نواحي فرنسا وفي عشرين يومًا خلت من شهر محرَّم الحرام بلغت الى مينا المدينة طولون صباح الجمعة ورمى الغليون المراسي مقابل تكيَّة (٤ المرفأ ثم ذلك الوقت قوّس عشرين مدفعًا لاجل السلام على المدينة وهم ايضًا ردُّوا علينا السلام بثلاثماية مدفع من ابراج المدينة

فعند ذلك ارسل وكيل البحر قبطانهُ لاجل كشف عافية الركّاب جميعهم ولاجل التهاني بوصولنا الى تلك المدينة لانهم كانوا منتظرينا من يوم الى يوم. فعندما تقدَّم القبطان الى قرب الغليون لكي يكلّمنا الّا انهُ ما اراد ان يصعد الى الغليون لسبب بعض طوارق هم متمسكون فيها في بلادهم وهي انهُ لمّا يستحوذ على بلادهم بعض امراض وبائية وتضرّ اهلها فجميع الذين يقدمون الى تلك البلاد موافين من اقليم آخر لم يسمحوا لهم ان يعاملوهم ولا يكلّموهم البتة الّا عن بعد.

---

١) كذا في الاصل والصواب محمَّد سعيد باشا كما قدَّمنا وكان مرموقًا اذ ذاك بمحمَّد افندي (Méhémet Effendi) ٢) الالبي في التركيَّة السفير

٣) الغليون ومنها الفرنسويَّة (galion) السفينة التجاريَّة. والبكالك المخصَّصة بخدمة السلطان ٤) التكيَّة الملجأ والمنزل الموقوف على الفقير

ومثل ذلك حال وصولنا نحن الى تلك الجهة فانهُ بامر الله كان موجودة رائحة طاعون في غرة (كذا) من مدينة مرسيليا وكان مات فيهِ من الناس سبعة الاف نفر(١ ومن هناك توسَّع وامتدَّ هذا المرض الى بروفانسا (Provence) وبلاد طولون (Toulon) ومن خوفهم لئلَّا ينفذ هذا الداء في بلادهم الى داخلها بزيادة كانوا يحرّجون على الغرباء والواردين ويضعونهم في التزويت (٢ اي الاربعينية بكل كمال لانهُ بعض ايام يضعونهم ثلاثين يوماً وغير ايام عشرين يوماً اكثر او اقلّ لكي في هذه الايام يتمموا الاربعينية بكل كمال لاجل الوباء فلاجل ذلك كانوا يسألون علينا من داخل عليونهم من البعد

وفي مساء ذلك اليوم عشية اتونا بزاد وفاكهة كثيرة وبكل صنف الشرابات والمربيات الفتخرة. وفي صباح ذلك اليوم الذي هو يوم السبت اتى الى عندنا حضرة المتوكل في مدينة طولون وهو ابن الامير المتوكل على حفظ عمارة البحر وقضاء اشغال الشعب جاء بتقارب الى قبال الغليون وبعد ان سلَّم علينا وعنَّانا بوصولنا بالسلامة استعذر منَّا عن عدم اشتراكهِ معنا. وكان يتوسَّل الينا ان نسامحهُ ولا نؤاخذه بعدم قدومهِ بالامس حال وصولنا وان الذي اعاقهُ ومنعهُ هو الطقس المتغيّر

ثم انهُ اعلمنا انهُ اعدَّ لنا محلًّا غير بعيد عن المدينة لاجل نزولنا فيهِ يدعى بستان السلطان واعلمنا انهُ كان مأمورًا بملاقاتنا بغاية القبول وبعد ان رجع الى البرّ ارسل الينا قاربهُ المتذهّب الذي اتى فيهِ. ونحن بعد الظهر دخلنا اليهِ وتوجهنا الى نحو المدينة فوجدنا كل مقدَّمي العسكر في الميناء على شاطئ البحر متفرّقين كل قسم وكل صنف بحالهِ وكانوا جميعهم يهدوننا كرامات وافرة وقدَّموا لنا حصانين فركبت الواحد وركب ابني الآخر وذهبنا برفقتهِ مع خوخداريتنا (٣ الى بستان السلطان وكان جنود البحر جميعهم لابسين سلاحهم يمشون مصطفّين حولنا وكذلك كان

---

١) كان سبب هذا الوباء مركب قدم من ثغر الشام فيهِ بضائع ملوَّثة بجراثيم الداء فانتشرت العدوى في جنوبيّ فرنسة

٢) هي تصحيف الكلمة الفرنسويَّة (Lazaret) نسبة الى لعازر الذي اقامهُ السيّد المسيح من الاموات فدأبوا بها الى الحجر الصحّي (الكرنتينا) التي يدعوها المؤلف بالاربعينيَّة

٣) هذه الكلمة مصحَّفة لم نستدلّ على صحتها لعلَّهُ يريد بها اتباعهُ

خارطة لرحلة محمد سعيد باشا الى فرنسة

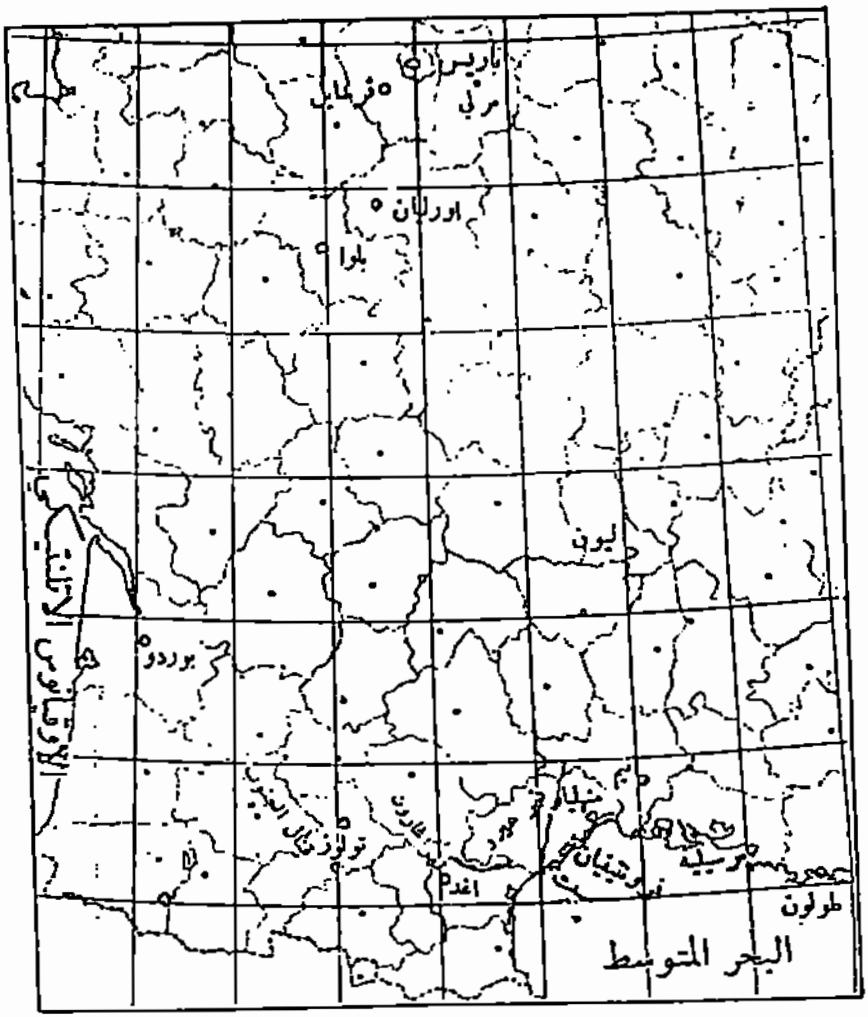

اصحاب نوبة البحر يدقُّون ويلعبون في آلاتهم مثل الطبل والنفير والصافور وكل فرقة بحالها وآلتها وعلى هذه الصفة كنا نمرّ بين جموع كثيرة قانين عن الجانبين

ثم اننا بلغنا الى بستان السلطان وهناك سأموا علينا بقواس مدافع عدَّة وفي حين دخولي الى القصر خرج الى استقبالي والي المدينة الى اسفل السلالم وسأم عليَّ بغاية الوداد عن بُعد لانهُ كان خائفاً من رائحة الطاعون ثم رجع الى مكانهِ

وفي الغد تشاوروا في انهم كيف يسفروني الى باريس وبما ان السفر في البحر كان اسهل من السفر في البرّ هيَّأوا لنا سبعة سفن معبَّرة شبه الشواطيّ (١ التي يسمونها بلغتهم ترتانات (٢ . وفي السفينة التي كنت مزمعاً ان اركبها اعدّوا لي بها اوضة خصوصيَّة وزيَّنوها وصفّدوها صدداً كاملاً يدهش العقول وعيَّنوا قبطاناً خبيراً لاجل تدبيرها

من طولون الى بوردو

وفي اليوم العاشر من سفرنا نهار الاثنين من شهر صفر (١ ك١ ١٧٢٠) نزلنا في تلك الشواطيّ المعيَّنة وبقينا تلك الليلة مقابل البر . وفي اليوم الثاني هبَّت علينا الريح المناسبة فنشرنا القلاع وسافرنا الى نصف الليلة الثانية فاتينا الى قرب البرج المسمى بلغتهم برج البوك (٣ وهناك رمينا المراسي بسبب الريح التي اختلفت علينا وبقينا في ذلك المكان اربعة ايام . وفي ليلة الاثنين رفعنا المراسي ثم سافرنا فبعون الله تعالى يوم الثلاثاء بعد الظهر بثلاث ساعات بلغنا الى مدينة سيت (Cette) فخرج وكيلها وقدم الى جانب مركبنا وسأم علينا عن بُعد وهنَّانا بالسلامة وعرض علينا سراية اعدّوها لنا داخل المدينة ووعدنا انهُ في تلك الليلة يتوقَّع لنا على قوف (٤ لاجل السفر للغد

فلمَّا ركبنا وقربنا من المكان رأينا جزيره صغيرة قريبة الى المدينة وهي قبال

---

١) هي لفظة دخيلة اصلها من الايطالية (saettia) فقالوا شاطيَّة ج شواطيّ ويقال شطيَّة من شطّ البحر و يقال ايضاً شياطيّ ومعناها السفينة الصغيرة ذات السار يين

٢) هي بالفرنسويَّة (tartane)

٣) هو بالفرنسويَّة (Bouc) اسم قرية صغيرة يصبّ عندها نهر الرون (Rhône)

٤) القوف عند الملّاحين القارب والمركب الصغير

مدينة مونبلليار (Montpellier) بعيدة عنها قسمة امبال ولم يكن بتلك الجزيرة شيء سوى كنيسة قديمة خراب وبما ان ذلك المكان مقسوم عن البر بعيد عن الناس ومهجور حكموا ان ذلك المكان يكون لنا لاجل عمل الاربعينية. فعند ذلك صرت متقلقاً بافكاري للغاية كأني في بحر وبما انَّ الرجوع كان عليَّ عسراً جداً جزمتُ على ذاتي الصبر الى ان قضينا الاربعين يوماً هناك. وبعد انتهاء الايام المحدودة اتى بك زاده (١ الذي كان مأموراً برافقتي ليذهب بي الى باريس لانهُ ما كان الى بعد. فهذا ارسل اعلمني بما كان موسوماً عليه من قبل السلطان بان يقدم يسلم عليَّ ويهنئني بالسلامة وان في الغد نتزل الى السفينة ونتوجه الى مكان يسمونهُ فرونتينيان (Frontignan) حيث اعدُّوا لنا مكاناً لنستريح فيه ونتغذى

واخبرني ايضاً انهُ سيقدم الى ذلك الطرف ويتفاوض معي ولكن كان مخفقاً عندهُ اني اكراماً الذي ارسلهُ سابقاً بكل احترام واحتشام كما ينبغي لقضاد السلاطين المرسلين من طرفهم. فكان جوابي لهُ اني سأعمل لهُ احتراماً وكل اكرام لائق ومناسب

وفي اليوم الثاني الذي هو ستة وعشرون من شهر ربيع الاوَّل (٢٥ك٢ ١٧٢١) نهار السبت غلساً نزلنا في القوف وسافرنا. فلماً وصلنا الى المدينة التي هي فرونتينيان حال خروجي من السفينة وجدت عربانة حاضرة مكلفة فركبتها حتى بلغنا الى المكان المعين لنا واذا البك زاده قادم علينا بثوب مذهَّب مهيب جداً فبعد ان قدمت لهُ الاكرام الواجب حسب المكن جلسنا على الكرسي وابتدأ يكلمني هكذا :

« ان استاذي ومولاي حضرة سلطان فرنسا لمَّا شعر في دخولكم السعيد الى حكمهِ اراد ان يظهر لجنابكم الشريف مقدار السرور الذي حدث لهُ فارسل عبدكم القائم على خدمة جلاله من ثلاثين قناق (٢ الى استقبالكم لكي اهنيكم بوصولكم بالسلامة وان شاء الله هذه الرسالة تكون لازدياد المحبة والوداد السالكة منذ زمان طويل بين المملكتين وانتخابكم من الدولة العلية الى هذه

---

١) اي ابن السيد مركبة من كلمتين تركيَّة وفارسيَّة يريد بها احد الاعيان

٢) القناق كلمة تركيَّة يراد بها المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم والمرحلة

الوظيفة يزيدنا برهاناً على الامر وانا كذلك مزمع ان اعمل كل جهدي بهذا الخصوص لئلا يخيب املنا هذا »

وفي اثنـاء هذه المخاطبة وضعوا المائدة واحضروا لنا كل نوع من الحلاوات فبعد ان اكلنا من تلك المائدة حضرت قناصل (قناصل) المدينة مع اعيانها واكابرها بالهدايا لكي يهنئونا بقدومنا . فبعد هذا سألمنا عليهم ثم مضوا فنزلنا في القوف وعزمنا على التوجه الى سيت

وفي وصولنا اليهـا رأيت عربانة مرسلة لنا من مونبلليار من حضرة الامير دروكاور (١ فركبناها وصعدنا بها الى القلعة . فسلّمت علينا القائمة بارسال كل ما فيها من المدافع الكبار والصغـار واجتود تراهم كلهم بالسـلاح الكامل مع قباطين المراكب كانوا متفرقين من كل مكان كنا نعبر به حتى وصلنا الى محلنـا . واما الناس فغير ممكن وصفهم من كثرتهم وخصوصاً النسا .

واما السراية التي عينوها لنا فهي سراية عظيمة مبنية على شكل خان وهي كانت برسم السكن وبناؤها عظيم ومصروف على بنائها عدة مئات الف كيس (٢ واما اعيان تلك المدينة واكابرها فانهم هنأونا بالهدايا والتحف واظهروا لنا سروراً عظيماً ومكثنا هناك جملة ايام . وكان كل يوم عشرة وعشرون وثلاثون من الناس يأتون جملة ليتفرجوا علينا ولم ينقطعوا عن المجيء طول النهار والى خمس ساعات من الليل واكثر . وكانت تأتي البشر من غير اطراف مع نسا اكابر من اشراف المدينة لكي يشوفونا لأن في مملكة فرنسا النسا غالبة على كرامة الرجال فهـذه تعمل ما تشا . وتلك تذهب الى حيث تريد وتفعل ما يشتهي خاطرها وعلى هـذه الطريقة اكبر شيخ في فرنسا يراعي ويعتبر لأدنى حرمة باكثر مـا تستحق والحكم هناك للنسا . (٣

وفي الغد لمّا اشرقت الشمس رجعنا الى القوف وعزمنا على التوجه الى الجانب

---

١) هو الدوق انطون غسطون دي روكلور (Duc de Roquelaure) المولود سنة ١٦٥٦ المتوفى سنة ١٧٣٨ كان اذ ذاك والياً على اعمال لنغدوق (Languedoc)

٢) الكيس في ذلك الزمان كان يساوي نحو خمسمائة ريال

٣) لا يريد بالحكم السلطة ولكن الكرامة والاجلال رعاية لضعفهنّ ومقامهنّ في العائلة

المقصود في القنال (canal du Languedoc *ou* canal du Midi) فهذا المسمى بالقنال هو نهر عظيم محفور تجتمع فيه المياه من تلك الاطراف فقبل ان تعمل هذا القنال في القديم كان المسافرون والتجار وابناء السبيل يسافرون في البحر وكان سفرهم يجري مشقة عظيمة ومصاريف جسيمة مع طول سفر وكثرة خطر فمن قبل ذلك احدثوا هذا القنال لكي يسهل السفر على التجار وغيرهم وانفقوا في عملهم الف كيس لاجل قصر المسافة وسهولة النقل. ولكن من هذا القنال يدخل الى السلطان اموال عظيمة بغير مقدار. والآن من البحر الابيض (١ يسافرون الى البحر المحيط بين المدن والقرى من غير ان يضعوا ارجلهم في البر والنفع الذي يدخل منه الى السلطنة قد ظهر انه زائد جداً عن المأمول ولكن النفقات المصروفة عليه وجدوها زائدة الغاية عما كانوا ظنوا لانه كان ضرورياً جداً ان يبنوا بنايات عظيمة فيه من حيث ان مونتروروس (٢ كان عالياً عند نهر الاغد (٣ غاية وعشرون ذراعاً وبما انه كان غير ممكن عبور المراكب وطلوعها الى هذا العلو المرتفع عملوا حواصل (٤ من حجار منحوتة وكل واحد يسع ثلاثة او اربعة أقواف. ومبني الواحد في شرف الآخر على شكل الدرج وكان لكلّ واحد منها بابان للدخول والخروج ومتى دخل القوف الى الحاصل كانوا يسكرون الباب الاسفل والباب الاخر الذي قدام كانت له كوّتان ولكل واحد ملزمة فهذا الباب كان على شكل السد والكوّتان لجريان المياه التي كانت مرتفعة من المكان الذي فيه القوف اكثر من عشر اذرع ولمّا كانوا يفتحون الملزمتين كانت تنصبّ المياه في الحاصل وفي اقل من ربع ساعة كان يمتلئ الحاصل والقوف يرتفع على وجه الماء ثم يفتحون الباب الذي قدام فكان يدخل فيه القوف مثل الاول ولهم عادة ان يربطوا الاقواف بحبال ويسحبها بغلان او ثلاثة ايغال في هذا القنال وهكذا على هذا الاسلوب يلزمهم ان يدخلوا الثمانين حاصل الماء ويخرجوا منها حتى انهم يبلغوا اخيراً الى مونتروروس (٢

---

١) يدعو بالبحر الابيض بحرنا المتوسط ٢) هذا الاسم مصحّف ونظنّ انهُ اراد منت نوروز (Col de Naurouse) الذي يبلو ١٩٠ متراً فوق سطح البحر

٣) يريد نهر هيرو (l'Hérault) الذي يجري قريباً من مدينة اغد (Agde)

٤) الحواصل هي الشُرَع (écluses)

ولما يبلغون الى هناك يبطلون من الصعود ويبتدئون في النزول ويعبرون في اربعة وعشرين حاصلاً مثل الحواصل الاولى حتى ينتهوا الى مدينة تولوز (Toulouse) وبنا انهُ يوجد انهر كثيرة في البلاد تلتقي في هذا القنال الذي هو قادر ان تغيب فيه جرّيان هذه المياه لعظمهِ فقسموا وردُّوا مياه هذه الانهار بواسطة متارس عظيمة كثيرة يميناً وشمالاً لئلا يحدث للقنال ضرر. ومن حيث انهُ يوجد بعض الانهار سالكة في عمق واماكن سفلية عن هذا القنال جعلوا لهم جسورة عدَّة تجري من فوقها المياه من غير ان تختلط مع تلك الانهار والاقواف التي تقوفهُ (١ وتذهب فيه تعبر من فوق هذه الجسورة مع ان احياناً يكون جارياً من تحتها نهر آخر

وكذلك قد يوجد في طريق هذا القنال جبل عالٍ يتعارضهُ فما وجدوا لهُ دواء آخر سوى ان يثقبوا الجبل كلهُ من وسطهِ هكذا بهيئة غير موصوفة صنعوا للمياه قناةً مثنيَّة من حجارة منقورة طولها قدر مائتي ذراع وبها تسلك الاقواف في باطن الجبل ولكن بهذا العمل التزموا ان يقطعوا السبيل في عدة اماكن يميناً وشمالاً الَّا انهم سلكوه ايضاً بعمل جسورة عالية جداً مع قناطر واسعة للغاية حتى ان المكارية والدواب والمواشي وعابري السبيل يمشون عليها والسفن تمشي من تحتهم وغير ممكن وصف هذا المكان باللسان بل يظهر كم من النفقات الوافرة التي صرفوها على تجديد هذا القنال

وفي مساء ذلك اليوم اتينا الى مدينة اغدي (٢ وقطعنا هناك في حاصل وفي خروجنا من القوف دخلنا الى المدينة وذهبنا الى المكان الذي هيَّأوهُ لنا. وفي صباح ذلك الليل نزلنا في القوف ايضاً ولم نزل نسافر ونعبر على جسورة وقناطر وكل ليلة ننزل في بعض قصبات وقرى الى ان بلغنا الى مدينة تولوز يوم الاحد رابع يوم خلا من شهر ربيع الآخر. وفي مرورنا في القنال في تلك المدة كان كثير من الناس مشتاقين ان يرونا ومنهم من كان يأتي من بُعد خمس او ست ساعات حتى يزورونا ويرونا ويتأملوا فينا واحياناً كان من زود الخلق والازدحام يسقط البعض

---

١) اي تقطعهُ وهي لفظة مركَّبة من القوف اي القارب كما يقال لصاحب القوف قوَّاف

٢) هي اغد (Agde) السابق ذكرها

منهم في ليله لان نهر القنال في مروره على مدينة تولوز يصب في نهر آخر هناك يسمى غارون (la Garonne) وفي ذلك الحد ينتهي

ففي وصولنا الى تولوز طلعنا من القوف وركبنا عربانة وتوجهنا الى المكان المعدّ لنا. اما مدينة تولوز فهي مدينة عظيمة كبيرة للغاية ولكن بعض اطرافها خراب وبما انها غير مقصودة من تجار وبازركان (١ فلاجل ذلك شعبها قليل الّا انها مدينة ذات سمعة في تلك البلاد ومعتبرة للغاية وكان من تلك القلعة فريقا جنود مع قبطانين من قلعة مض حتى انهم تقدموا الى ملاقاتنا بعراضة (٢ وضوضاء عظيمة

وبما انهُ تستعمل في نهر الغارون القوف أخر غير التي في القنال لزمنا ان نقيم في تولوز ثلاثة ايام الى حينما نقلوا حوائجنا كلها من فوق القنال ثم في اليوم الرابع سافرنا الى سالم المينا بعزّ واكرام عظيم وركبنا السفينة في نهر الغارون ومن قناق (٣ الى قناق وصلنا الى بوردو (Bordeaux) في نهار السبت

بوردو وضواحيها

ولما خرجنا من السفينة استقبلنا اهالي القلعة في عراضة عظيمة وبلّغونا الى محلّنا لكن لم أرَ في كل سفري هناك جميعهِ قطّ في كل المدن التي دخلناها مثل مدينة بوردو في بنائها وتكوينها وفي طبع اهلها وسكانها لانها مدينة حسنة للغاية ومبنية في مكان لائق للغاية وشعبها غفير وصاحب ادب ونهر الغارون هكذا يمتدّ بهذا المقدار امام المدينة في اتساعهِ حتى ان مينتها تشبه مينة القسطنطينيّة. وثغر البحر المحيط ليس بعيدًا عنها سوى عشرين ساعة ومنهُ تأتي الفلايين الى هذه المينا وهناك ترمي مرساها بالمدينة مع انها أقواف كبار اكثرهم اربعين مدفعاً

ولما وصلنا الى ذلك المكان كان في المينا نحو خمسماية وستماية قوف غلاوين (٤ مع شواطيّ من بحر المحيط وزيادتهِ ونقصانهِ وعلى قدومهِ ورجوعهِ وصار لنا بذلك

---

١) البازركان كلمة تركيّة معناها التاجر

٢) يريد بالعراضة المظاهرات والزوق

٣) القناق تركيّة معناها المرحلة

٤) الفلايين والغلاوين جمع غلّيون للمركب السابق ذكره

سرور زائد لاننا كنا سابقاً سمعنا عنهُ ولكن ما كنا رأيناه قطّ لانهُ يزيد وينقص كل اربع وعشرين ساعة مرّتين فامّا نقصانهُ فانهُ يدوم خمس ساعات وزيادتهُ سبع ساعات ففي الزيادة يمدّ على بوردو اي يفيض الى ورائها مسافة اربع وخمس ساعات. فاما مياه نهر الغارون فوقت جزْر البحر تنكب وتجري بعزم زائد الى نحو البحر المحيط. وانا قد رأيت بعيني الغارون يفيض على علو ذراع واحد ومثلهُ يهبط ذراع آخر والاقواف التي توجد قريبة من شاطئ البحر في اوان الجزر تمكث على اليبس والّا يفيض المدّ ترتفع على المياه مثل السابق حتى ان الاقواف الذاهبة والواردة تنتظر اوان المدّ والجزر لكي تسافر بقوة هذه الحركة ومن لم يرَ بعينه فلا يصدّق لان هذا شيء بقدرة الله عزّ وجلّ

اما اهالي هذه المدينة فكان اكثرهم لمّا يتقدمون الى عندنا يزيدوننا رغبة في فرجة القلعة اخيراً تنازلنا الى عزيمتهم (دعوتهم) وذهبنا معهم الى القلعة لكي نتفرّج فرأيناها قلعة جميلة جداً وواجبة الفرجة لانها معمّرة خارج المدينة على شاطئ النهر عمارة تدهش الناظر والعقل من حسن بنائها وهي متينة جداً وفي بلوغنا اليها سلموا علينا بمدافع بغير عدد

ولما دخلنا الى داخل القلعة اخذونا الى دار حاكمها وهي دار جميلة جداً وهناك بستان على سطح القلعة ومعمّر فيهِ كشك (١عالٍ يشرف منهُ على كل البلد وعلى المينا والبحر وهو مكلّف جداً فدخلنا معهُ نتمشى في ذلك الكشك. وكان حاكم هذه القلعة خبيراً وغاوياً (مغرماً) بتربية الزهور فرأيت عنده زهوراً لم أرَها قط انواع واشكال وكان من جملة الزهور المفتحة اربعة انواع لا غير لان ذلك الوقت ما كان وقت الزهور حافل الّا انهُ في مرورنا بطرلون كان الناس يهدوننا زهوراً ربيعية في كل مكان مثل بنفسج مكبّس ونرجس وغيره

فبعد ان تفرجنا على ذلك القصر اخذونا الى اوضة وكانت مزينة بانواع التصاوير والدهونات شيء يخدع العقل منهم وجوه ملائكة وشخوصة مكللة وازهار واشجار شيء يأخذ العقل فبعد ان دخلت الى هذه الاوضة حضر لعندي حضرة قائد

١) والصواب كُوشك بالتركية ومعناهُ القصر والدبكرة والمنزهة من الخشب ومنهُ الفرنسوية (kiosque) والعربية جوسق

العسكر موسيو بَرْويك (١ الذي كان في تلك الدرجة جاء الى استقبالي وسلّم علي بكل اكرام ومودّة وشربنا معهُ قهوة وشرابات ومربيات من التي كانوا اعدّوها لنا

فبعد ذلك توسّل اليَّ حضرة القائد بان لا أواخذه ان كان ينقص شيء من اكرامنا فاجبتهُ من طرفي اني شاكر لفضله على جميع الاكرام الذي قدّمهُ لنا ثم ودّعتهُ ورجعت الى المكان المعدّ لنا . فحضرة القائد المذكور كان لهُ اشتياق زائد لان يرانا لانهُ قط ما رأى مسلمين وكان يمنعهُ من نظره الينا علوّ درجتهِ لانهُ ما كان يمكنهُ يجي الينا وكان يريد يعزمني كثيرًا الّا ان القلعة كان الدخول اليها ما هو مسموح كثيرًا ولا لواحد مثلنا لكن حال وجودي إلجي يلزم انهم يعملون لي اكراماً يليق بالاحلى

من بوردو الى باريس

ومكثنا في بوردو ثلاثة ايام ويوم الثلاثاء صباحاً نزلنا في القرف وعزمنا على التوجه الى نواحي باوه (Blois) وحينما وصلنا هناك وقفنا رجلنا في البرّ رأينا اثني عشر حصاناً يَدَكات عليها الرخوت المجوهرة(٢ وهي من عند السلطان وجاء واحد من قبل السلطان شكل سردار عسكر . وكان ايضاً رجل واحد معهم حامل رخت ذهب مرصّع بالجواهر الكريمة يسوى بدرة من المال ومعهم عَرَبانة عظيمة مكلّفة ولكن بنا ان هواء تلك البلدة بارد في الغاية وشدة البرد شديدة ما استطعت ان اشاور ذاتي كيف اصنع بل حالًا دخلت الى تلك العربانة وقصدنا المكان المعين لنا

ولكن مع دخولنا هذا كان مهيأً لنا عراضة عظيمة بعز وشان واي شان ثم رفقة ناس ذوي احترام وجنود وعساكر ونوبات وعُدَد واكرام واي اكرام . واما الناس الذين ارسلوهم لكي يرافقونا الى باريس فكانوا مقيمين بهذه المدينة في انتظارنا مع جملة لوازم السفر . والى هذه المدينة كنا مسافرين في الماء ومن هناك تركنا الماء وراءنا

فاستقمنا بهذه المدينة ثلاثة ايام ثم عزمنا على السفر وفي مكثنا هذا كنت

---

١) يريد الدوق دي برويك (G. Fr.- J. duc de Berwick) هو ابن الملك انكلترة جاك الثاني المولود في لندرة سنة ١٦٧٠ المتوفّى سنة ١٧٣٤ خدم زمناً طويلًا لملوك فرنسة وتقدّم في المناصب حتى تولّى قيادة العساكر الفرنساويّة في جهات مختلفة

٢) اليدكات ما جُنب من الخيل . اما الرخوت فجمع رَخْت وهي عدّة الخيل وحليتها

مداوماً على زيارة القصور والمفترجات والمتنزهات فوجدت في الطريق سراية (١ مبنية في مكان شرح وهي كاشفة على كل البلد وفي هذه السراية موجود ستة قُبَب ومن جملة حسن بنائها ما كنت اقدر اشبهها سوى بالباخر الفضية المخرَّمة (٢ وايضاً النقوش التي داخل هذه السراية فاني لم اجد مثلها لانهُ تشبه اوجه الساعة فسألت عن هذه السراية فقيل لي ان هذه السراية قد بناها السلطان فرنسيس الاوَّل بهذا الاسم بين سلاطين فرنسا وهي مختصة باقنوم السلطان وتسمَّى سراية السلطان الَّا انَّ افصح لسان واقوى جنان من البشر لم يقدر يصف حسن هذه السراية ولا متنزهاتها لانها فريدة وغير ممكن وصف ما رأيت داخل هذه السراية من الحركات التي لم يتصورها العقل ومن دواليب الماء ومن السواقي العجيبة والاشجار المقصوصة التي كل واحدة منها تشبه شكلاً فمنها ما هو على شكل خيام ومنها على شكل اوضة وشكل خيل عليهم وكَّاب وما اقدر اصف ما رأيت

ثم اننا من هناك انتقلنا الى اورلانس (Orléans) وهذه المدينة بعيدة عن باريس عشرين ساعة وبما انها في مكان الامان لم يعتنوا في حفظها ولا في عمارتها ولا حفظ قلعتها . فرأينا هناك جزءاً من عسكر السلطان مشتِّياً في هذه المدينة . فهذا العسكر لمَّا اقبلنا خرج الى استقبالنا مسافة ساعة بعيداً عن البلد والجنود كلهم واقفون بصفوف منظمة الاشكال الى حدّ المدينة وكل اهالي المدينة مع الاعيان ايضاً اجتمعوا لكي يرونا ويسلموا علينا مثل ما كان يحدث في بقية البلدان التي مررنا بها

ولمَّا وصلنا انزلونا في مكان معيَّن لنا وهو سراية مكلفة وكانت هذه السراية مزيَّنة بانواع التصاوير والنقوش وهي اشخاص جميلة مثل شبه الملائكة وشبه نساء جميلات وسائر الطيور والوحوش بأكمل هيئة وهي مصمودة بانواع الفرش الجميل شبه اوض اهل الصحبة (٣ الاعلى . فاستقمنا في اورلانس يوماً واحداً

وفي الغد سافرنا من هناك وبلغنا الى سراية قريبة من مدينة باريس وقد كانوا قد هيَّأوها لنا وكان وصولنا اليها في تسعة ايام خلت من جمادى الاولى نهار السبت

---

١) السراي والسراية بالتركيَّة بلاط الملك والقصر

٢) هذا القصر من افخم قصور فرنسه يُعرَف بقصر بلوا (le Château de Blois)

٣) يريد باهل الصحبة الاعيان وحاشية الملك

واستقمنا هناك سبعة واحدة وفي هذه السبعة أيام لم استطع اشرح كثرة الكرامات وازدحام الشعب وخصوصاً اكابر المملكة الذين كانوا يأتون تبديلاً (اي مناوبةً) مستترين (متنكرين) ومنهم من يأتي ظاهراً ولم أرَ مثلما صار بهذه القلعة من ازدحام الشعب وكثرة الخلق ليلاً ونهاراً حتى كنت اظنّ ان بتلك الأيام عرساً او مرسحاً

وعلمت ان عند الدولة الفرنسارية وظيفة ليست عند العثملي تسمّى هذه الوظيفة وظيفة مُدخل القصّاد (introducteur des Ambassadeurs) وهي عندنا شبه قبجيلار كهياسي (١ وهذه الرتبة هي انهُ لما يدخل قاصد الى فرنسا ويطلب الدخول عند السلطان فاولاً يذهب مدخل القصاد بنفسه الى عند القاصد ويهنئهُ بالسلامة ويرافقهُ في دخوله ويأخذه الى عند السلطان . تلك هي رتبة مدخل القصاد

فهذا الرجل حالاً اتى الى عندي ثاني يوم بعد وصولي الى السراية وهنأني بالسلامة من طرف السلطان واهداني اعزازاً واكراماً السلطان ومكث عندي برهة زمان ومضى . ثم بعد يومين آخرين اتى نكي يعلمني انهُ اليوم القادم وقت الظهر يكون دخولي الى باريس وان هناك هيأوا لنا محلاً واعلمنا انهُ تنبّه على سائر الجنود ان يصنعوا لكم آلايا(٢ حافلاً وهم مستعدّون للقائكم في الطريق ويسلمون عليكم بعزّ واكرام . ثم اخبرني انهُ بعد ان تعيّن اول سردار (٣ عسكر فرنسا الى مرافقتكم الى طرف السلطان اختلف اخيراً الرأي كون المذكور وظيفتهُ تربية حضرة السلطان وايضاً لاجل كبر عمر المذكور وقلة قوّته وعدم استطاعته على ركوب الخيل فقد تعين مكانهُ القائد الثالث وهو حضرة موسيو ويسترس (٤ وهذا القائد المذكور يوم الاحد ياتي الى عندكم ويأخذكم في عربانة من عربانات السلطان وتذهبوا معهُ الى باريس . وقلنا : سمعاً وطاعة

---

١) معناها بالتركيّة كبير الحجّاب . وكان وقتئذٍ مدخل القصّاد السنيور ريمون (Rémond) يساعدهُ السنيور مرلين (Merlin).

٢) الآلاي بالتركيّة الموكب الحافل

٣) السردار قائد العسكر وهي تركية

٤) هذا الاسم مصحّف في الاصل يريد به المرشال ديسترى (le Maréchal d'Estrées) واسمهُ فكتور ماري وُلد سنة ١٦٦٠ وتوفي سنة ١٧٣٧

دخول السفير الى باريس

ثمَّ مضى وثاني يوم اتى الينا واحد آخر وظيفتهُ ترتيب دخول القصَّاد الى عند الملك فهذا حين اتى الينا سألني عن عدد ارفاقي وكَّاب الخيل لكي يأتي بخيل من اسطبل الملك فاعطيتهُ عددهم كما طلب ومضى. ثم اتى امير اخور (١ السلطان وكان اسمهُ سنيور كونيارد (٢ فهذا رتَّب وحضَّر كل شيْ ثم وصل القائد ويتريس مدخل القصَّاد في عربانة ومعهما عربانة السلطان وناعيك من عربانة سلطان فرنسا فنهضتُ حالًا لاستقبالهما واكرامهما. وأما رأياني اعلماني ان حضرة السلطان الله يحفظهُ ارسل لك عربانته التي حضرتهُ يركبها وان ارباب الدولة ايضاً سيرسلون لكم كل واحد عربانة شكل يدَك (٣ فبعد ان يركبوا جماعتك فاذا فضل منهم شيْ يُسحَب شكل يدك

ففي تلك الساعة رأينا مقبلة الينا عربانة واحدة كأنها مزينة بالذهب والجواهر الثمينة وهي مزينة بزينة تفوق العقل. فركبت تلك العربانة التي لم اجد مثلها قطّ ولا مثل زينتها ومشيتُ فمشيت العساكر بالآلاي منظوم وخيل السلطان وكانت خيالة الملك تلعب في الميدان وكذلك اتباعي كانوا يلعبون معهم على الخيل. وكان الآلاي منظوماً على هذا الشكل منهم ناس لابسون فريّ بايديهم طبنجات (٤ ومنهم ناس لابسون عبيّ في شكل غريب وهم ماسكون رماح وفي اثرهم الاغاوات

وكان امامي ماشيًا قبجيلار كهياسي وابني كان راكباً وراني مع الكتخدا (٥ وبعد هؤلاء كانوا يسحبون ستة روؤس خيل احصنة مزيَّنة بزينة لائقة وبعد هؤلاء ترجمان السلطان مع السر آخور (٦ وبعدهم انا راكب حصاناً مزيَّناً وعربانة السلطان بجانبي لاني كنت خرجت منها لكي يراني الخلق وكنت لابساً ثوباً مذهَّباً مهيباً

١) الامير آخور هو الموكَّل على الاسطبلات الملوكيَّة (Grand-Ecuyer)

٢) لم نجد شيئًا من اخباره والاسم يمكنهُ ان يكتب Cuynard او Quinard او Cunard او Guignard

٣) يَدَك بالتركيَّة تقال للفرس المجنوب استعملها هنا للعَرَبة الفارغة تُركب عند الحاجة

٤) هي البندقيَّات الصغيرة او الفرود

٥) الكتخدا ويقال كهيا هو عند الترك قيم الدار وصاحب التدبير .

٦) السر آخور كالامير آخور . وسر بالتركيَّة الرأس

وعن يميني القائد ويستريس وعن شمالي مُدخل القصاد وهما راكبان خيلهما وآخر الكل كان رجيسنت (١ آخر من الخيالة ومن ورائهم العربانات بصفها على مراتبهم لان اسواق مدينة باريس هي واسعة بهذا المقدار حتى ان عرض الزقاق او السوق يسع ست عربانات اذا جرت فيها على السواء

وكان الشعب الذي رأيتهُ يوم دخولي جمعاً غفيراً وفائضاً جداً حتى ان بعض الاماكن وبعض الحارات بالكاد كنا نقدر فيها على المرور لان اكثر الشعب اتى من جهات عديدة لاجل الفرجة وايضاً بيوت باريس كذلك هي مبانية عالية حتى ان اكثرها مبني على ثلاث او اربع طبقات ولكن غير ممكن ان اقدر اصف او احصي كثرة الشعب والخلق الذين كانوا واقفين في الطرق والابواب والشبابيك الكاشفة على الطريق حيث كنا نعبر وفي كل مكان ما كنا نرى سوى رؤوس ورجال واطفال. وعلى هذا الترتيب وصلنا الى السراية المتعينة للقصاد وجميع البياوق التي كانت معنا واقفة صفوفاً صفوفاً والجميع يسلمون علينا ثم بدأوا يعبرون قدام تلك السراية لاجل الفرجة

فعند ذلك القائد ودعنا ورجع الى مكانهِ وبعده بدا الرجال والنسا يأتون الى عندنا في ازدحام عظيم منهم اناس يأتون الى زيارتنا ومنهم يأتون بطريق فرجة خصوصاً لكي يتفرجوا علينا كيف ناكل. وكان ياتي من طرفهم اناس يطلبون منا ان الست الفلانية تريد تأتي لتبصر كيف تأكلون لان هذا اعظم اشتياقهم وبما ان كانت بينهم نساء امارة واكابر فما كان يمكننا ان نمنعهم. ومن حيث ان الصيام الكبير كان واقعاً عند النصارى وذلك الوقت حاكاً فكان اكثرهم يحوطون بالمائدة ويتفرجون علينا فقط من غير ان يذوقوا شيئاً من المائدة ونحن كنا نصبر على ذلك لان هذه عادة عند الفرنساوية انهم يروحون يحضرون على اناس مثلنا حتى يتفرجوا على اكلهم

وكذلك لهم عادة ان يحضروا على غداء السلطان وعشائهِ. ولهم ايضاً عادة ان السلطان اذا قام من الرقاد ولبس ثيابهُ تصطفُّ اهل الدولة حولهُ وكذلك كانوا يفعلون معنا والمرمنا ان نصبر على هذه العوائد جميعها (لهُ بقيَّة)

١) من الفرنسويَّة (régiment) بمعنى طابور العسكر